



إيبارشية لوس أنجلوس

كنيسة ماريوحنا الحبيب بكوفينا

ترانيم نصف الليل

القس اغسطينوس حنا



“وَنَحْوَ نِصْفِ اللَّيْلِ كَانَ بُولُسُ وَسَيْلَا يُصَلِّيَانِ وَيُسَبِّحَانِ اللَّهَ
وَالْمَسْجُوتُونَ يَسْمَعُونَ نَهْمَهُمَا” (أع ١٦: ٢٥)

لا يستطيع أحد أن يذكر قوة تأثير الأغنية في النفس البشرية، فتوجد أغاني وأناشيد كسبت حروب بسبب كلماتها النارية وموسيقاها الحماسية. وتوجد موسيقى وأغاني شعرية رفيعة تؤثر في القلب وتهز المشاعر وتدعم العيون. لذلك قيل أن أخلاق الأمم تتشكل من أغانيها. والكتاب المقدس حافل بالأغاني الروحية وأناشيد التسابيح والشكر والفرح والنصر. وسفر المزامير أطول أسفار الكتاب يعتبر قلب الكتاب، ليس فقط لوجوده في الوسط ولكن لأنه يخاطب القلب بكل مشاعر الإنسان في جميع ظروف حياته من فرح وحزن وشكر وحمد، وضيق وخوف وسلام واطمئنان ومرض وألم وهزيمة وانتصار. وهو بذلك يتفوق على أغاني العالم الجسدانية الفارغة التافهة.

يقول داود مرثى إسرائيل الحلو: "أغنى للرب في حياتي. أرنب لإلهي ما دمت موجوداً. فيلذ له نشيدى وأنا أفرح بالرب" (مز ١٠٤: ٣٣).
ويقول الرسول بولس "مكلمين بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية مترنمين ومرتلين في قلوبكم للرب" (افسس ١٩: ٥).
مسكين وبائس هو الإنسان الأخرس الذي لا يعرف الترنيم والتسبيح.

وهذا يأتي بنا إلى آية الموضوع "نحو نصف الليل كان بولس وسيلا يصليان ويسبحان الله والمسجونون يسمعونهما" (أع ١٦: ٢٦).

جدير بالملاحظة أن الرسولين بولس وسيلا أمكنهما أن يرئما في السجن أصلاً. لعله آخر مكان في العالم يمكن أن نتوقع أحداً يغنى ويرنم فيه، مكان لا تسمع فيه إلا أصوات الصياح واللعنات والمشاجرات. لقد كانا في السجن ليس من أجل خطأ أو شر اقترفاه، فمكتوب "لا يتألم أحدكم كقاتل أو سارق أو فاعل شر أو متداخل في أمور غيره، ولكن إن كان كمسيحي فلا يخل بل يمجّد الله من هذا القبيل" (١بط ٤: ١٥). كان سبب القبض عليهما وإيداعهما السجن إنهما شفيها فتاة بها روح شرير كانت تعمل جارية وتكسب مواليتها كثيراً بسبب عرفتها، فلما أخرجها منها الشيطان ضاعت مكاسيهم فلفقوا للرسولين اتهامات بأنهما يبيلان المدينة بتعاليمهما فمزقوا ثيابهما وضربوهما بقسوة بالعصى وألقوهما في السجن الداخلي مع ضبط أرجلهم في المقطرة الحديدية مثل كبار المجرمين (أع ١٦: ١٦). وبالرغم من الظلم وظلام السجن الدامس ورطوبته ورائحته الكريهة والآم جروح ورضوض الرسولين فإنهما في أحلك الظروف كانا يُسبحان الله.

ما أصعب الغناء في نصف الليل :

يعتبر الليل هدية جميلة يومية من الله للإنسان إذ ينتهي النهار بأتعابه فنستلقى في حضن الراحة وننسى متاعبنا وأحزاننا وهمونا ومخاوفنا إلى أن تشرق الشمس من جديد، وهكذا يُجدد الله حياتنا وصحتنا وأعصابنا وسلامة عقولنا وأعضائنا. حقاً إن الليل من أعظم البركات التي يستمتع بها الإنسان. ومع هذا فهو عند البعض وقت كئيب ومخيف يخشون فيه هذا الشيء أو ذلك ويشبعون أرقاً وقلقاً حتى الصباح.

وقد عبّر داود النبي عن هذه الحقيقة بقوله: "نفسى تنتظر الرب أكثر من المراقبين الصبح، أكثر من المراقبين الصبح" (مز ١٣: ٦) وكرر الجملة الأخيرة مرتين عمداً "أكثر من المراقبين الصبح" لأنه يوجد أشخاص يعانون من الأرق وعدم القدرة على النوم إلى الصباح بسبب الآم المرض أو الحزن أو الخوف أو الضيق والقلق أو خشية الموت وينتظرون الصباح بفارغ الصبر للشعور بشيء من الاطمئنان أو استيقاظ أفراد الأسرة للمساعدة.

كذلك عبّر أيوب جيداً عن هذه الحالة بقوله: "ليالى شقاء قُسمت لى. إذا اضطجعت أقول متى أقوم. الليل يطول وأشبع قلقاً حتى الصباح" (أي ٧: ٣-٤). إنه من السهل أن نغنى فى ضوء النهار كما تفعل معظم الطيور، حينما تكون الشمس مشرقة والزهور متفتحة والطيور تغرد على الأغصان... عندما تكون الصحة جيدة والعمل ناجحاً والأولاد بخير، نغنى ونرنم "باركى يا نفسى الرب ولا تنسى كل حسناته" (مز ١٠٣). ولكن عندما يأتى سواد الليل وتعصف العواصف فتضيع الصحة ويموت الأحياء ويهجم المرض فجأة ونفقد الوظيفة أو الثروة وتندهور ظروف الحياة، فعندئذ تختنق كلمات الترنم فى حلقنا.

نجح أيوب فى الامتحان القاسى بامتياز مع مرتبة الشرف وتزكى فى إيمانه وصبره ولكنه مع ذلك ذهب عنه السرور واختنقت فى فمه أغاني الفرح والشكر وتحول عوده ومزمارة إلى الأنغام الجنائزية الباكية الحزينة... اسمعه يقول بأسلوبه الأدبى الرائع: "تقدّمنى أيام المذلة. إسوددت لكن بلا شمس. قمت فى الجماعة أصرخ. صرت أحملاً للذناب وصاحباً لرنال النعام. صار عودى للنوح ومزمارى لصوت الباكين" (أي ٣٠: ٣٠). ولكن ما أعظم نعمة المسيح التى جعلت بولس وسيلفا فى نصف الليل - أشد أوقات الليل ظلاماً - وفى الزنزانة والمقطرة والسلاسل والآم العظام... يُصليان ويُسبحان الله!

قد تكون الصلاة ملجأً ومنتفخاً فى الضيق إذ يقول الكتاب: "أعلى أحد مشقات فليصلى."

ولكن التسبيح علامة الفرح والسرور إذ أن تكلمة الآية السابقة هي "أمسروا أحد فليرتل". (يع ١٣:٥). ومعنى هذا أن الرسولين كانا مسرورين! حقاً يعطى الرب يسوع المسيح فرحاً يتحدى مصائب الحياة ومصاعبها وأحزانها كما قال له المجد: "ولا يستطيع أحد أن ينزع فرحك منكم" (يو ١٦: ٢٢) ولذلك تأثرت السماء والأرض بصلوات وتسابيح الرسولين فاستجابت السماء بمعجزة وحدث زلزال عظيم زعزع أساسات السجن وتحطمت المتاريس والأبواب وسقطت السلاسل عن المسجونين وانتهى ذلك بإيمان السجن وأسرتة. ولكن كان أهم ما يشغل البشير لوقا كاتب سفر الأعمال هو تسبيح الرسولين فى نصف الليل لأنه ضد الطبيعة البشرية!

لماذا نغنى وترنم؟

لماذا رنم بولس وسيلا مسبحين الله فى السجن فى نصف الليل؟ هل كان ذلك للتسليّة أو الاستعراض؟ هل كان التسبيح من قبيل التصفير فى الظلام لطرد الخوف؟ كلا. فقد كان تسبيحهما لسبب قطعاً. لقد ترنما بفرح لأنهما عرفا المسيح وقوة قيامته. غنيا لأن الله كان معهما. كانا يُسبحان الله لأنهما عرفا أن يسوع المسيح هو رب وإله وأنه هو الضابط الكل وأنه يحبهما. وأن الصباح لا بد أن يأتى فى المساء يبيت البكاء وفى الصباح ترنم" (مز ٣٠: ٥). لا يوجد شئ يمكن أن يغلب المسيح قاهر الموت. نعم كانا يغنيان لأن إيمانهما يقول أنه لا يوجد شئ فى الوجود يمكن أن يفصلهما عن محبة الله فى المسيح يسوع فلا شدة ولا ضيق ولا جوع ولا عرى ولا خطر ولا سيف ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلهما عن محبة المسيح. نعم كان تسبيحهما مصدره الله المكتوب عنه "موتى الأغاني فى الليل" (أى ٣٥: ١٠). وأنت أغانيهما من الصلاة لأنهما كانا يصليان ويُسبحان الله فمن يعرف طريق الصلاة يعرف طريق الترنيم والتسبيح والأغاني الروحية. فما هو الترنيم إلا صلاة غنائية... أنه لون راق من الصلاة تابع من القلب والعمق والاختبار ولا يمكن أن يكون مجرد واجب. إن الترنم والتسبيح هو لغة السماء والسمايين وعمل السيرافيم ومن أعتاد الترنيم فى النهار يستطيع أن يرتل فى الليل وفى منتصف الليل.

ماذا كانت أغنية الرسولين؟

لم يخبرنا الكتاب عن نوع ولا اسم التسابيح التى كانا الرسولان بولس وسيلا يترنمان بها.

فى سجن فيلبى فى منتصف الليل. ولا وسيلة لنا أن نعرف ذلك إلا منهما شخصياً فى الأبدية. ولكننا نستنتج من كون بولس الرسول يهودياً فريسياً حافظاً للعهد القديم، ان ترانيمها كانت غالباً من سفر المزامير أو من بعض الترانيم والتسابيح الأخرى من سفر الخروج أو دانيال. ربما كانت من مزمور ٢٧ "الرب نورى وخلصى ممن أخاف". أو من مزمور ٣٤ "طلبت الرب فاستجابنى ومن جميع مخاوفى نجانى". أو من مزمور الراعى رقم ٢٣ "الرب راعى فلا يعوزنى شئ... أيضاً إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معى"... وربما كانا يُسبحان ترنيمه موسى ومريم "أرنب للرب فإنه قد تعظم، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر. الرب قوتى ونشيدى وقد صار خلاصى" (خر ١٥). وربما كانا ينشدان تسبحة الثلاث فتية فى آتون النار. ومن يدرى ربما كانا الرسولان المغبوطان يرمان بعض التراتيل والتسابيح المسيحية التى كانت مستعملة فى القرن المسيحى الأول والتى دون بعضها ضمن رسائل بولس الرسول نفسه فيما بعد مثل "إن كان الرب معنا فمن علينا" (رو ٨: ٣١) وفى العالم سيكون لكم ضيق. ولكن تقوا أنا قد غلبت العالم" (يو ١٦: ٣٣).

من الذى سمع ترنيمه الرسولين؟

لا بد أن الله طبعاً هو أول من سمع ترنيمه خادميه المحبوبين والمحوسين. ولكن من أيضاً؟ يقول الكتاب "وفى نصف الليل كان بولس وسيليا يصليان ويُسبحان الله والمسجونون يسمعونهما" (أع ١٦: ٢٥). هذا السجن الذى طالما رنت فيه الشتائم القذرة واللعنات الغليظة وربما الأغاني البذيئة مع أصوات الصياح والتجديف والتهديد، لأول مرة تُسمع بين جدرانها الآن أصوات سماوية بالحمد والشكر والتسبيح والتمجيد للرب الخالق والفادى المحب الرب يسوع المسيح. ولأول مرة يسمع هؤلاء فى تاريخ مدينة فيلبى وفى تاريخ قارة أوروبا التى كانت فيلبى باكورة المدن التى قبلت المسيح فيها وأول مدينة أوربية تأسست فيها كنيسة مسيحية على اسم العذراء القديسة مريم والدة الإله. ويخبرنا سفر أعمال الرسل الاصحاح السادس عشر أن الإيمان دخل إلى أول المؤمنين سيدتان ورجل هم ليديا بائعة الأرجوان والفتاة التى كان بها روح عرافة وأخرج منها القديس بولس الشيطان (وهى سبب وضعه فى السجن) ثم سجان فيلبى. وبعد سنتين من هذه الواقعة نرى الرسول بولس يكتب رسالة الفرح لأهل فيلبى التى إفتتحها بهذه التحية الجميلة "بولس

وتيموثاوس عبدا يسوع المسيح إلى جميع القديسين في المسيح يسوع الذين في فيلبى مع أساقفة وشمامسة، نعمة لكم وسلام... "إذن فقد انتشرت المسيحية في فيلبى بعد قصة السجن وترنيمة الليل والزلزلة إلى ألوف القديسين والأساقفة والشمامسة! ولكن ما وجه العجب في استماع المساجين لتلك الترنيمة؟ فالمساجين المساكين حولنا اليوم في كل مكان خارج قضبان السجن، وكلمارنم أولاد الله سمعهم المساجين!

فهل تعلم يا عزيزى ويا عزيزتى أن حولك مساجين وأسرى للخطايا والشرور والعادات الرديئة يتطلعون إليك من خلال قضبان السجون التى شيّدوها لأنفسهم ووضعوا أنفسهم فيها بارادتهم أو بجهلهم؟ فهذا سجين للذات وذاك سجين للشهوات أو اللذات الجسدية والجنسية... هذا سجين الدخان والخمر والقمار والمخدرات، وتلك سجينة الموضة والمكياج والعثرات هذا سجين الكبرياء والغرور وحب الظهور والمديح. وتلك سجينة الثرثرة والكذب والشتام ونهش الأعراس ومحبة الأعراس. هذا سجين الطمع وتلك سجينة الحقد والخصام والانتقام وعدم الغفران... أن كل هؤلاء مساجين ومساكين يائسين يصرخون مع سجان فيلبى: ماذا أفعل لكى أخلص؟" أنهم يتطلعون إليكم ويستمعون، فهل يسمعون ترنيمة حلوة تزلزل ضميرهم وتهز كياناتهم وتحول قلوبهم إلى الله ليحررهم.

تسبيح المسيح فى منتصف الليل:

إن تسبيح بولس وسيلا بسجن فيلبى فى منتصف الليل يذكرنا بتسبيح الرب يسوع المسيح وتلاميذه فى نصف الليل عقب مغادرتهم مائدة العشاء الربانى وخروجهم إلى جبل الزيتون وإلى بستان جثيمانى حيث نقرأ أنهم "سبحوا ومضوا إلى جبل الزيتون" (مت ٢٦: ٣٠).

كان رب المجد فى طريقه إلى القبض عليه والمحاكمات الظالمة طوال الليل التى أنتهت بصلبه وقتله فى الصباح ويخبرنا تلميذه الحبيب يوحنا أنه "خرج وهو عالم بكل ما يأتى عليه" (يو ١٨) وفى ليلة الأمه وموته وفى طريق الجلجنة والصليب رنم الحبيب وسبح مع تلاميذه. أنها كانت أعظم أغنية فى نصف الليل علّمها الرب لتلاميذه وللكنيسة كلها من بعدهم ورأينا فيها قوة المسيحية وفرحها وانتصارها حتى فى طريق الآلام والموت والصليب.

وقد سارت كنيسةنا القبطية الأرثوذكسية على هذا التقليد إلى الآن بأن تسبِّح وترنم أثناء وبعد الانتهاء من تناول من سر جسد الرب المكسور عَنَّا ودمه المسفوك لأجلنا بكلمات المزمور الأخير ١٥٠ "سبحوا الله..."

ويعتبر نشيد حبوق النبي أيضاً من أغاني نصف الليل اسمعه يرنم رغم كل هذه الخسائر قائلاً: "مع أنه لا يزهو التين ولا يكون حمل في الكروم يكذب عمل الزيتونة والحقول لا تصنع طعاماً وينقطع الغنم من الحظيرة ولا بقر في المداود. فأني ابتهج بالرب وأفرح بإله خلاصي. (حب ٣: ١٧).

مسييا هاندل من أغاني نصف الليل :

أن المقطوعة الرائعة التي ألّفها الموسيقي الشهير هاندل التي تُدعى المسييا والتي تتناول بالغناء والترنم والموسيقى حياة المسيح بالكامل والنبوات الرائعة الخاصة به، لهي من أروع الترانيم والأغاني الروحية التي سمعتها أذن إنسان على الأرض ولعلها تعطينا فكرة عن أمجاد وأفراح الترنيم والموسيقى والغناء في السماء.

إن مؤلف المسييا جورج فردريك هاندل الموسيقي الإنجليزي وعازف الأرغن الشهير بكنائس إنجلترا في القرن الثامن عشر، كان في أواخر أيامه فقيراً معدماً يسير في شوارع لندن مفلساً حزيناً منكسراً، وقد أصيب بمبادئ نزيف في المخ أدى إلى إصابته بشلل نصفي. ولفترة زمنية لم يستطع المشي ولا الكتابة وقد الأطباء الأمل من شفائه.

ولكن هاندل لم يستسلم لليأس وظل يُصلي ويصارع حتى استرد بالجهد القدرة على تحريك يده اليمنى، وانكب على التأليف الموسيقي وكتابة النوتة الموسيقية لآيات العهدين القديم والجديد. لمدة ٢٤ يوم ليلاً ونهاراً. وظل يكتب حتى أكمل "أوراتوريو المسييا" وعندما انتهى منه وجده خادمه جالساً يبكي ويقول: "رأيت السماء مفتوحة وإلهنا العظيم جالساً على عرشه محاطاً بربوات الملائكة". وعندما عُزِّفت ورُنمت لأول مرة أمام الملكة فيكتوريا وجاءت المقطوعة الشهيرة (ملك الملوك ورب الأبواب) قامت الملكة عن كرسيها وخلعت تاجها من على رأسها، وقالت أمام ملك الملوك يجب أن تُخلع التيجان وتُلقي عند قدميه (كما هو مكتوب في سفر الرؤيا). ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن كلما عُزِّفت المسييا وجاء لحن "ملك الملوك" يقف جميع الحاضرين عن كراسيهم في دار الأوبرا احتراماً وخشوعاً أمام السيد المسيح ملك الملوك وأمام جمال وقوة تأثير الموسيقى والترنيم. وهكذا كانت "المسييا"

من أغاني نصف الليل التي ألهم بها الله هاندل في عمق ليل الآمه فتبع سيده الذي سبّح مع تلاميذه وهو في طريقه إلى الجلجثة، ومثل بولس وسيلا اللذان سبّحا الله في نصف الليل في السجن.

إن حياتنا ليست مثل زهرة عباد الشمس المغمورة بالشمس دائماً ولكنها مثل زهرة البانسية التي تعيش جزئياً في الشمس وجزئياً في الظل.



تطلب هذه النبذات من:

مكتبة كنيسة ماريوحنا الحبيب بكوفينا - كاليفورنيا

21329 Cienega Ave., Covina, CA 91724

Tel. (909) 592-8847

Tel. (562) 900-2695

E-mail: frhanna@mystjohn.org

Web site: www.mystjohn.org

